MAISON
DU FUTUR
بيت المستقبل

أوراق سياسية

– رقم ٧ –

كانون الثاني ٢٠١٧

الصحافة اللبنانية بئس هذه النهايات

نصري الصايغ

ملاحظة: هذه الوثيقة لا تعكس سوى رأي الكاتب.

الصحافة اللبنانية بئس هذه النهايات

الصحافة الورقية في خطر. لم يعد الأمر تخميناً ولا توقعاً.

لبنان يودع صحافته العريقة. «السفير» غادرت الصحافة الورقية والرقمية. قد لا تكون الأخيرة. سواها على الحافة، والانقاذ متعذر. العجز يصيب الصحف فتضمر وتتقشّف وتتقلّص. شبه اختناق للأقلام والاصوات. إنه الفصل الاخير للصحافة الورقية قبل سدول الستارة. قد تكون هذه حقبة النهاية للصحافة المستقلة نسبياً، فالأزمة الراهنة ليست عابرة، و الزمن لا يبدو مبشراً بمسار صحافي معافى ومستقر ومتطور. معاناة الشّح والعوز والاستدانة وبيع الأصول وفقدان الدعم المالي وانخفاض عائدات الاعلان وتراجع نسبة القراء، هي الوقائع اليومية البائسة لصحافة ورقية يائسة.

لبنان، في هذا المسار، يخسر ريادته الاعلامية. بيروت لم تعد عاصمة الكتاب والصحافة. هي رصيف يخلو من رواد الكلمة والفكر والابداع والسياسة. إنه زمن البؤس الاعلامي واليتم الثقافي والشح المعرفي. زمن هجرة وتهجير الكفاءات. لبنان تنطفئ شموعه المضيئة. كان وطن اللبنانيين والعرب. صحفه كانت مقصداً للسياسة والثقافة والابداع اللبناني والعربي. الشعراء والكتاب والمفكرون العرب، جلُّهم، مر من هنا، أو انطلق من هنا.

هل كان ممكناً تفادي هذه النهاية؟

الوقائع حسمت الاجابة بالنفي. الصحافة الورقية تعاني منذ سنوات، عوارض لا شفاء منها، نوجزها بما يلي:

أولاً: هجرة القراء للصحافة الورقية. الاجيال الجديدة، استوطنت الشبكة العنكبوتية. وجدت في مواقعها الممتلئة والثرية والمتدفقة معيناً لا ينضب، وبلوغها ميسور بكلفة مجانية (كبسة اصبع) وبسرعة ضوئية. جيل جديد يجد في الحاسوب والمحمول فائضاً من المواقع التي تضخ على مدار الثانية معلومات مليونيّة في شتى الاختصاصات والاهتمامات والمعارف، ومن بينها، السياسة والاقتصاد والمال والفن والشعر والصحة والمرأة والتسلية و... كل ما يشتهيه العقل وتتطلبه النفس وتلحّ عليه الحاجات. ولعل السبق الذي تميزت به الصحافة، قد تراجع كثيراً، فبات المحمول شاهداً وناقلاً للأحداث في لحظة وقوعها، وباثّاً لها عبر وسائل التواصل الاجتماعي، بكبسة زر... هجرة الجيل الجديد الى منابع جديدة للمعارف، الزم الصحافة أن تنتقل الى العالم الرقمي، فباتت الصحيفة الالكترونية هبة مجانية للقارئ، ما جعل الصحيفة الورقية متراجعة كمّاً ومردوداً.

هذه خسارة أولى، تستتبع خسائر متتالية.

ثانياً: تقلص الاعلان بنسبة غير مسبوقة. اصيب الاعلام عموماً ، منذ ثمانية أعوام بنقص حاد في تمويل كلفة الانتاج. الاعلام المرئي والمسموع يتعرض لاهتزازات دائمة. الصحافة الورقية تعرت في الصور الاعلانية. فقدت الميزانية دخلاً ثقيلاً. اسباب هذا النقص لبنانية وعربية. الازمة الاقتصادية المزمنة والمستفحلة في لبنان، بسبب انعدام السياسات التنموية والإنتاجية، افقدت السوق خصوبة الاستثمار وجدوى الاستهلاك. قصّرت المؤسسات الاقتصادية في تدارك الازمة وتفاقم نتائجها. خسرت روح المجازفة والمبادرة. انعكست الازمات السياسية على القطاعات الانتاجية

والاسواق التجارية. تضاءلت الربحية وتفاقمت المديونية. والرأسمال بطبيعته جبان، فانكفأ، ولم يبق في السوق الاعلاني، غير المصارف التي تكنز الاموال وتربح من عائدات مد الدولة بالديون التي فاقت السبعين مليار دولار. آخر ما تبقى للصحافة في السوق الاعلاني، لوائح المصارف واعلاناتها الموزعة بالقطارة.

وانعكس الوضع الاقليمي على لبنان. الحروب المشتعلة في الشرق والخليج باتت كلفتها عالية. انهار سعر برميل النفط. شحت الاموال في صناديق الدول الذهبية، اصيبت الاستثمارات بالضمور وفقدان السيولة... كل ذلك كان له تأثير على تناقص المعلنين. الاعلان، دلالة على عافية الاقتصاد.

ازمة الاعلانات اصابت الصحافة الورقية والاعلام عموماً. النتائج مؤلمة. اولى الضحايا الصحافة الورقية.

ثالثاً: تراجع الدعم بواسطة الاشتراكات النوعية. درجت دول وأحزاب ومنظمات ومؤسسات على الاشتراك السنوي بمئات النسخ يومياً. وكان هذا النمط من الدعم يسد العجز الناتج عن تضاؤل القراء وتناقص حصة الاعلان. وبعد اندلا ع الحروب العربية في الاقليم، والاصطفاف الذي حصل في المنطقة، وصراع المحورين، في الميادين القتالية، وميادين السياسة والاعلام، اقدمت دول «الدعم» بواسطة الاشتراكات النوعية، على خفض اشتراكاتها ثم على قطعها. وفقدت الصحافة الورقية، ثالث معين، يعينها على الاستمرار والبقاء.

رابعاً: دول الدعم تدعم صحافتها وإعلامها. لم تعد الدول العربية بحاجة الى أن تتعكّز على صحافة لا تملكها من الفها الى يائها. انتهى زمن السخاء العربي على الصحافة اللبنانية. صحافتها هي الاقوى وكذلك اعلامها المرئي. قد يشكل

هذا عيباً ومطعناً في الصحافة الوطنية اللبنانية. التجربة اثبتت أن لا حياة لصحيفة في لبنان من دون دعم خارجي أو تمويل سياسي أو سخاء اعلاني. لا تستطيع عائدات الصحافة الورقية، أن تستثمر من دون دعم ، او، من دون اشراك فعلي برأسمال الجريدة.

قديماً، وقبيل الحرب اللبنانية، استقبل رئيس الجمهورية اصحاب الصحف مرحباً بهم في بلدهم الثاني لبنان. لبنانيتهم غير صافية. وهذا امر طبيعي في بلد، تنتمي طوائفه ومكوناته وأحزابه الى ما بعد الحدود، سياسياً وطائفياً ومصلحياً. «مجد» الصحافة اللبنانية، انها كانت لبنانية وعربية معاً، بمنسوب من التأييد أو العداء، يترجم سياسياً من خلال اهواء جماعاته الحاضنة بيئاتها لقراء بميول عابرة للحدود. بمعنى آخر، لا صحافة من دون دعم عربي أو اقليمي. وعليه، عندما توقف هذا الدعم، مباشرة أو عبر وقف الاشتراكات أو منع الاعلانات والمساهمات، شعرت الصحافة الورقية باليتم. يُستثنى من هذا التقييم، الصحافة المملوكة من قوى طائفية ومذهبية، لا تزال تحظى بدعم ورعاية وتمويل، يوفر لها الاقامة والانتاج... يصح القول هنا، كما تكونون، تكون صحافتكم. هذه الازمة ليست عابرة أبداً. ما بعدها خواء وفقر حال.

خامساً: التحصن بالماضي وفشل التحديث والتجديد، أصاب الاعلام الورقي بتصلب الشرايين. ثورة المعلوماتية مدمرة' فيما ثورة المطبعة بناءة. الصحافة والكتاب والمدرسة والجامعة هي من نتائج اكتشاف المطبعة وانتشارها.

هذا زمن ماض. زمن كان فيه التقدم والتطور تحت البنى التي خلّفتها المطابع. كان زمناً بطيئاً، تطورت فيه الصحافة الورقية ونمت ونجحت. بمقدار ما ساهم فيها

العقل والقلم والمال في دفع الصحافة الى ان تبوّأت السلطة الرابعة في سلّم المؤسسات في الدولة.

لا بد من النظر الى الزمن الراهن بطريقة أخرى. انه زمن سريع وثري ومستهلك. التقدم العلمي بالمنجزات التقنية، لم يعد متمهلاً. الجديد اليوم، قديم غداً. القديم يخرج من الخدمة. ينعدم. يمكن اطلاق حكم صائب على نمط التقدم المتسارع والمتجدد والمبتكر، بأنه التقدم المتوحش. تقدّم يقتل ما انتجه من قبل. لا يقيم اعتباراً لماض وما يمثله من قيم وفنون ومعارف ومؤسسات وتقاليد. هو تقدم يترصّد الزمان القادم ويستعجله، ممهوراً بجديد يلغي قديماً، أو يزيحه من التداول. منطقة الاستهلاكي القائم على المنفعة واصطناع، أو اختلاق الحاجات، وتأمين وسائل إشباعها، بإغراء لا يقاوم، وبالسرعة الضوئية، هو منطق يقوم على الالغاء والافتراس وتكديس الركام...

هذا الزمن المتسارع بجنون لا يلائم مؤسسات انصرفت الى ممارسة الصحافة كحرفة ومهنة تقليدية.

اكتشاف آلة التصوير أضيف الى اللغة، فاغتنت الصحافة بالصورة. اكتشاف المذياع استضافه الاعلام الورقي وباتا اثنين متعاونين. اكتشاف المرئي، احدث انقلاباً، استطاعت الصحافة أن تحافظ على مكان وحصة لها في حقل الاعلام. طوّرت وجددت وحدّثت وسائلها ومداخيلها ولغتها وطريقة تقديم المعلومة والتحليل والتحقيق والاستقصاء. صارت اكثر فائدة من الجريدة الاخبارية. مع المرئي (التلفزيون) صارت الجريدة، مجلة يومية غنية. وتحولت المجلة الاسبوعية الى ملفات تطرح وتشرح وتعالج وتناقش وتثير... التحدي المرئي، صمدت فيه الصحافة واجادت.

ماذا حصل مع دخول الكوكب كله، العالم الرقمي؟ هوّة كبيرة انفتحت بين ما هي عليه الصحافة الورقية،

وبين وسائط التواصل الاجتماعي. هذه المداهمة الرقمية المتمادية للصحافة الورقية، جعلت كلفة المواكبة والمواءمة والانتقال الى العالم الرقمي، عبر ابتداع موقع الكتروني، كبيرة وغير متوفرة. الجريدة، تؤمن دخلاً ضئيلاً وتستدرج دعماً مالياً، لكن الموقع لا يوفر دخلاً وبحاجة الى انفاق من دون اعلان حتى الآن.

جمهور المواقع الالكترونية، سهل المنال. المعلومة والخبر والصورة والحدث تسبق البصر. هي بين يديه، لحظة شاء بلا جهد. جمهور الجريدة صعب. على القارئ أن يبذل جهداً ويدفع ثمناً ويصرف وقتاً. بطبيعة السهولة، أن يصبح قارئ الجريدة نادراً ومتابع المواقع فائضاً... الفارق الكبير، أن المواقع تقدم المعلومة ولا تقدم المعرفة. المنافسة بين الرقمي والورقي محسومة. الرقمي سيفوز، ولو كان ضحلاً.

سادساً: أبعد من الورقي والرقمي، أسئلة عن دول تستمر فيها الصحافة الورقية بالحضور والمنافسة، برغم التقدم في المجالات الرقمية المتعددة. «اسرائيل»، صحافتها لم تتأثر كثيراً. لا تزال قوية. الصحف المناطقية في دول أوروبا تنمو وتنجح... لماذا لسنا كذلك؟

«اسرائيل» دولة معادية وناجحة. كيان مصطنع ونام ومتقدم. لديها رأي عام متنبه. دولة مساءلة ومحاسبة. دولة انتاج وتسويق. دولة حديثة بمجتمع «فسيفسائي» بنسبة كبيرة، ومتّحد ومتفاعل بنسبة أكبر. التوازن قائم بين المؤسسات. قوى الانتاج هي قوى فعلية... في ظلال هذه الترسيمة، ظلت الحاجة الى الصحافة الورقية كحاجة الاسرائيلي الى زيارة المواقع المتوفرة. دافعت الصحافة الورقية عن وجودها من خلال قرّائها، لأن الصحيفة ليست خبراً ومعلومة، بل موقف وسياسة وكشف واستقصاء وفسحة صراع.

ظلّت حاجة للرأي العام، كما اصبحت الصحافة المناطقية حاجة في دول أوروبا، لالتصاق الصحيفة بالقضايا الخصوصية والتفصيلية التي تهم المواطن في منطقته. ولهذه الصحف حضور على المواقع، ويتم تصفحها الكترونياً، باشتراك رمزي. المجانية نادرة في لحظة صدور الطبعة الورقية.

لبنان ليس كذلك. هو شبه دولة، أو دولة فاشلة. مؤسساته أسماء على غير مسمياتها. مؤسساتنا ممتلكات طوائفية. السياسات مشاعات مذهبية. الانظمة والقوانين غير جديرة بالاحترام من قبل السلطات. القضاء على غاربه. الانحياز المسبق يلغي الفهم والمعارف. كل معسكر مذهبي يعرف ما يطيب له. اعلامه يخاطبه وما يتفق ومزاجه. اعلام مسيحي وسني وشيعي. في هذا العدم السياسي، عدم أكبر، وهو فقدان الرأي العام. بلا رأي عام، لا صحافة. دولة فاشلة لا تحتمل صحافة ناجحة. تمتنع عن الدعم. تفضل التخلي. لا يهزها موت صحيفة أو انهيار اعلام.

في مثل الاحوال اللبنانية، تصير السياسة عبثاً وبلا قواعد. لا حدود فاصلة بين الموالاة والمعارضة. كما هي الحال في الانظمة الديموقراطية. لا حدود مفهومة بين الاعداء والحلفاء. خليط غير مفهوم من التناقضات الحادة والتحالفات المفاجئة. أي صحافة مستقلة أو شبه مستقلة قادرة على التعبير والنقد. كيف تفهم أعداء الامس حلفاء اليوم؟ كيف تفهم «شعوباً» لبنانية تنتقل من حال الى أحوال، من دون أن تُسأل. «شعوب» تقاد من فوق، وتنقاد بغريزة، ذات تدنٍ مذهل في الذيلية... لا صحافة تعيش وسط هذا الفشل وهذه اللامبالاة. كم فاسداً معروفاً يحكم ويتحكم ويحاكم؟ ولا مرّة، استطاعت الصحافة أن تذهب في ملف فتحته الى نهايته... مسموح

أن تقول، ممنوع أن يستجيب أحد. صدق غسان سلامة في قوله: «الفساد يسير في الشارع متباهياً». الفاسد، في لبنان، جزيل الاحترام وفي أفضل مقام... إذاً، وداعاً للصحافة النقدية. الوريث الشرعي هو هذا «اللبنان» في صيغته المذهبية. الصحافة الطائفية، والاعلام الطائفي، الذي توزع مرئياً وصوتياً، بطريقة شرعية، على المرجعيات الطائفية والمذهبية، حي يرزق، وهو مدعوم وممّول و»جمهوره» يصدّقه ولو كذب أو نافق أو تملّق أو تلوّن.

الرأي العام غادر لبنان أبان الحرب وبعدها. في الدول العربية، الرأي العام مقموع ومكبوت. الاستثناءات قليلة جداً: الكويت بنسبة معقولة، تونس بنسبة جريئة، المغرب يشهد صحافة بآراء مختلفة... ما عدا ذلك، فضاء مقفل للكلمة الحرة. أمة دامسة في ليل استبدادها، ومشاعات دمها المسفوك باسم ملوك ومذاهب وحكام شرعيتهم مستمدة من قدرتهم على الفتك والتوحش والاستبداد.

سابعاً: النهايات ليست مفاجئة. تجيء بشكل طبيعي وفي سياقات متوقعة. الجريدة، وإن غلبت فيها السياسة، إلا أنها حاملة قضايا وتهتم باختصاصات مختلفة وتحتضن ابداعات متنوعة. هي شبه «جامعة» يومية. السياسة تستهلك طليعتها كل صباح، ولكنها تحمل أعباء المؤسسات والنقابات والاحزاب والجامعات والانتاج والتربية والمهن وابداعات الفن، شعراً ورواية ولوحة ولحناً ومسرحاً وسينما... الجريدة مائدة فاخرة، العادي فيها هو الباهت في السياسة.

صَدَفَ، للأسف، أن قضت الحرب اللبنانية على ما كان يشكل دعائم مجتمع حيوي وواعد. كانت الاحزاب، على تعددها، أحزاباً.

بعضها لديه اختصاص طائفي، والاكثرية باختصاصات مدنية. هذا انتهى بعد الحرب. احتلت الطوائف والمذاهب مرتبة الاحزاب. انخفض الصوت الوطني. بات نشازاً. لا صوت يعلو فوق صوت الطوائف. حالة خرس وطني باتت تعبر عن افلاس الدولة وعجز المجتمع... احزابنا اليوم بلا ثقافة ولا فكر.

من قبل، في زمن أمجاد الصحافة اللبنانية، كانت النقابات تحيي الشارع اللبناني بالقضايا والمطالب. كان الاتحاد العمالي العام، قوة ذات وزن. النقابات المهنية والقطاعية كانت ذات فعالية وتأثير... هذا زمن انتهى. لا نقابات ولا نقابيين. تمت مصادرة القضايا واختزالها. «الزعيم» يكفينا مؤونة النزول الى الشارع للمطالبة بحق أو قضية. لذا، اكلتنا النفايات، عمينا في الظلمة، يئسنا من الوطن... يومها، كانت الصحافة وطناً صغيراً تلتقي فيه احزاب وجامعات ونقابات وكتاب... الجريدة، كانت الممر الالزامي لتخريج الشعراء والكتاب والمسرحيين والمبدعين. لم يعد لهؤلاء منصة. الاعلام المرئي ترفيهي سخيف، أو تدييني مخيف. الثقافة والنقد والفكر من المخلفات. الجامعة اللبنانية، عصب القضايا وموئل الافكار ومصنع القادة والكوادر، تم تدجينها وتطييفها. لا أثر لها في الشؤون الوطنية. هي مشاع لزعماء الطوائف، بعدما كانت موئلاً للفكر والنقد والنقاش والنضال النقابي والسياسي... أي صحافة بلا أحزاب ولا نقابات ولا جامعات ولا انتاج ولا حيوية. جدلٌ دائم في الدجل السياسي، هو واقع لبنان. صراخ تليه صفقة فصمت فوئام.. «فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر».

الصحافة الورقية تودع، بعدما فارقت الروح الكيان اللبناني، وبات من العبث جداً أن تسوق حواراً في الاسس والمصالح والقضايا الحيوية

للبنان. الشغل الشاغل، منذ ما بعد الحرب اللبنانية، الصراخ من أجل توازن المحاصصة. حصل ذلك، فماذا بعد؟ لا شيء. البلد الذي يفرغ من الفكر والسياسة والعلم والمساءلة والمحاسبة، لا تجدي معه صحافة مستقلة.

نهاية الصحافة الورقية كانت متوقعة. ما تبقى يعاني ويعاند. الاعلام البديل عنها، هو شبيه باللبنانيين اليوم. كما تكونون، يكون إعلامكم.

المؤلم، أن كل هذا الخراب، يترافق مع حالة الضعف والتسيب من جهة، ومع احتشاد الناس بشكل يرثى له، كي يمنعوا تحرير اعناقهم من نير الاستعباد الطائفي.

خاتمة:

الصحافة، تعيش لحظات حالكة. انها في الرمق الاخير. هل يمكن تصوّر لبنان بلا صحافة، برغم ما على الصحافة اللبنانية المستقلة أو شبه المستقلة من نقد وتقصير؟

معروف ماضي الصحافة اللبنانية. كانت ثقيلة الحضور. وطأتها السياسية محسوسة ويحسب لها حساب. كانت صحافة تخيف البعض ويخافها مسبقاً البعض الآخر... معروف واقع الصحافة راهناً. لا قدرة لها على مشقة البقاء. المستقبل، بلا صحافة حرة ومستقلة؟ ممكن ذلك. فلبنان اليوم يعيش بلا احزاب، بلا موازنة، بلا مؤسسات، بلا نقابات، بلا قضاء، بلا مستقبل.

ان طغيان التخلف والتسلط الطائفيين يقتل بالإهمال، ويميت بالتخلي ويفني بفقدان الامل، اكثر مما يفعله الطغيان الملكي والاميري والعسكري... عندنا يصير الامر طبعاً وتطبعاً وقبولاً، بلا احساس بالمسؤولية. عند الاستبداد الفج والعنيف، يحتفظ الانسان بطاقة الرفض وعنف التوعد ولحظة اندلاع

العنف، ليستعيد حقه بالكلمة والحرية والكرامة والمواطنة.

لبنان، ليس معافى. فضيلته، أنه يعيش باستسلام، نسميه العيش المشترك بسلام.

بئس هذه النهايات.

بيروت ١٥ كانون الثاني ٢٠١٧

نصري الصايغ